

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

في مناسبة الآية لما قبلها وجهان:

دعوة مجددة
للمشركين
لتصحیح
معتقدهم في
الله اقتداءً
بالكَمَلَة من أهل
العلم

الأول: بعد أَنْ وَقَفَتِ الْآيَتَانِ السَّابِقَتَانِ بِالْمُشْرِكِينَ إِذَا أَهْلَ الْعِلْمِ، وَأَرْتَهُمْ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَتَعَامَلُونَ مَعَ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي لَمْ يُدْعُوا إِلَيْهِ بَعْدُ، وَيَلْقَوْنَهُ بِهَذَا الْاحْتِفَاءِ الْعَظِيمِ، عَلَى حِينِ أَنَّهُمْ - أَيِ الْمُشْرِكِينَ - يَلْقَوْنَ هَذَا الْقُرْآنَ بِوُجُوهِ مُنْكَرَةٍ، وَقُلُوبٍ مُغْلَقَةٍ، وَعُقُولٍ شَارِدَةٍ، يَعُودُ الْخِطَابُ إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ دَعْوَةً مُجَدَّدَةً لَهُمْ إِلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا أَمْرَهُمْ هَذَا الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَأَنْ يُبَادِرُوا فَيُصْلِحُوا مَوْقِفَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَيُصَحِّحُوا مُعْتَقَدَهُمْ فِي اللَّهِ⁽¹⁾.

الثاني: أَنَّهُ لَمَّا طَالَتْ الْكَلِمَاتُ فِي الْمُنَازَعَةِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَمُنْكَرِي النُّبُوءَاتِ، وَالْجَوَابِ عَنْ شُبُهَاتِهِمْ؛ أَتْبَعَهَا بَرْدٌ آخِرٌ يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيهِ كَيْفَ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيُطِيعُونَهُ؛ فَتَعُدُّ الْأَسْمَاءَ لَا يَقْتَضِي تَعَدُّدَ الْمُسَمَّى، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿ادْعُوا﴾: الدُّعَاءُ: النَّدَاءُ، وَأَصْلُهُ: اسْتِمَالَةُ الشَّيْءِ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ دُعَاءً، تَقُولُ: دَعَوْتُ قُلَانًا دُعَاءً وَدَعْوَةً، أَيْ: نَادَيْتُهُ⁽³⁾، وَالدَّعْوَةُ: الْمَرَّةُ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 573 / 8.

(2) الخطيب الشربيني، السراج للنير: 344 / 2.

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعوا).

الواحدة من الدعاء⁽¹⁾، ويأتي الدعاء بمعنى الطلب والسؤال، يُقال: دَعَوْتُ اللَّهَ، أَدْعُوهُ، أَي: سَأَلْتُهُ⁽²⁾، والدعاء أيضًا: العبادة والضراعة⁽³⁾، ويُطلق على الحث إلى الشيء والترغيب فيه، فيقال: دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِ، أَي: حَثَّهُمْ وَرَغَّبَهُمْ⁽⁴⁾، والمقصود بالدعاء في الآية: الطلب والسؤال بتضرع.

(2) ﴿الْحُسْنَى﴾: أصل (حسن) من الحُسْنُ ضِدُّ الْقُبْحِ، يُقَالُ رَجُلٌ حَسَنٌ وامرأةٌ حَسَنَاءُ وَحُسَانَةٌ⁽⁵⁾، والحسنى مؤنثُ الْأَحْسَنِ، وهو الْمُتَّصِفُ بِالْحُسْنِ الْكَامِلِ فِي ذَاتِهِ، الْمُقْبُولُ لَدَى الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْهَوَى، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحُسْنِ الْمَلَأَمَةُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمَلَأَمَةَ وَصَفَ إِضَافَةً نِسْبِيًّا، فَقَدْ يَلَائِمُ زَيْدًا مَا لَا يَلَائِمُ عَمْرًا، فَلِذَلِكَ فَالْحُسْنُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلشَّيْءِ الْحَسَنِ، وَوَصَفُ ﴿الْأَسْمَاءِ﴾ بِـ ﴿الْحُسْنَى﴾: لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَاتِ كَمَالِ حَقِيقَتِي، وَالْحُسْنَى أَيْضًا: لَقَبٌ قُرْآنِيٌّ إِسْلَامِيٌّ يَدُلُّ عَلَى خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾⁽⁶⁾، يُونُسُ: 26، والمقصود بالحسنى في الآية: تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ، أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا: أَنَّهَا أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ وَأَجْلُّهَا، لِإِنْبَائِهَا عَنْ أَحْسَنِ الْمَعَانِي وَأَشْرَفِهَا.

(3) ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾: أصل (جهر) هُوَ إِعْلَانُ الشَّيْءِ وَكَشْفُهُ وَعُلُوُّهُ⁽⁷⁾، يُقَالُ: جَهَرَ الشَّيْءُ: عَلَنَ وَبَدَأَ؛ وَجَهَرَ بِكَلَامِهِ وَدُعَائِهِ وَصَوْتِهِ وَصِلَاتِهِ وَقِرَائَتِهِ يَجْهَرُ جَهْرًا وَجِهَارًا، وَأَجْهَرَ بِقِرَائَتِهِ لُغَةً، وَجَهَرَتْ⁽⁸⁾، وَرَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ: أَيِ عَالِي الصَّوْتِ، وَكَذَلِكَ رَجُلٌ جَهْوَرِيٌّ الصَّوْتِ: رَفِيعُهُ⁽⁹⁾، وَالْجَهْرَةُ: مَا ظَهَرَ، وَرَأَى جَهْرَةً: لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا سِتْرٌ؛ وَرَأَيْتَهُ جَهْرَةً وَكَلِمَتُهُ جَهْرَةً⁽¹⁰⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالْجَهْرِ فِي الْآيَةِ: قُوَّةُ صَوْتِ النَّاطِقِ بِالْكَلامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: النَّهْيُ عَنِ شِدَّةِ الْجَهْرِ⁽¹¹⁾.

(1) ابن الأثير، التَّهَابَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (دعا).

(2) الْفَيَومِيُّ، لِلصَّبَاحِ لِلنِّيرِ فِي غَرِيبِ الشَّرْحِ الْكَبِيرِ: (دعو).

(3) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 7/ 3644.

(4) الْأَمِيرُ، التَّحْبِيرُ لِإِبْضَاحِ مَعَانِي التَّبْسِيرِ: 5/ 4.

(5) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (حسن).

(6) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 9/ 186، 27/ 376.

(7) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (جهر).

(8) ابْنُ دَرِيدٍ، جَمْهَرَةُ اللَّغَةِ، وَالْجَوْهَرِيُّ، الصَّاحَّاحُ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (جهر).

(9) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ سِيدِهِ، الْمُحْكَمُ: (جهر).

(10) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، وَالرَّيْدِيُّ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (جهر).

(11) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15/ 238.

(4) ﴿وَلَا تُخَافُكُ﴾: أصل (خفت) هو إِسْرَارٌ وَكِتْمَانٌ، فَالْخَفْتُ: إِسْرَارُ النَّطْقِ، وَتَخَافَتْ الرَّجُلَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (طه: 103⁽¹⁾)، وَتَخَافَتِ الْقَوْمُ: تَشَاوَرُوا سِرًّا⁽²⁾، وَالْخُفُوتُ: ضَعْفُ الصَّوْتِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ؛ يُقَالُ: صَوْتُ خَفِضْ خَفِيتُ، وَخَفَتِ الصَّوْتُ خُفُوتًا: سَكَنَ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِلْمَيِّتِ: خَفَتْ إِذَا انْقَطَعَ كَلَامُهُ وَسَكَتَ، فَهُوَ خَافِتٌ، وَالرَّجُلُ يُخَافِتُ بِقِرَاءَتِهِ إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ قِرَاءَتَهُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ⁽³⁾، وَالْمُرَادُ بِالْمُخَافَةِ فِي الْآيَةِ: مُفَاعَلَةٌ، مِنْ خَفَتَ بِكَلَامِهِ، إِذَا أَسْرَرَهُ، وَصِيغَةُ الْمُفَاعَلَةِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مَعْنَى الشَّدَّةِ، أَيْ: لَا تُسْرِهَا⁽⁴⁾.

(5) ﴿وَابْتَغِ﴾: أصل (بغى) طَلَبُ الشَّيْءِ، تَقُولُ: ابْتَغَيْتُ الشَّيْءَ، وَبَغَيْتُهُ، أَبْغَيْتُهُ بَغْيَةً وَابْتِغَاءً، أَيْ: طَلَبْتُهُ⁽⁵⁾، وَالبَاغِي: الَّذِي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضَّالَّ، وَأَبْغَاهُ الشَّيْءَ: طَلَبَهُ لَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى طَلَبِهِ⁽⁶⁾، وَقِيلَ: الْابْتِغَاءُ هُوَ الْاجْتِهَادُ فِي الطَّلَبِ⁽⁷⁾، وَهُوَ أَيْضًا: الْإِرَادَةُ وَالْقَصْدُ، يُقَالُ: ابْتَغَيْتُ الْأَجْرَ فِي عَمَلِي، أَيْ قَصَدْتُهُ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْإِتِّخَاذِ، تَقُولُ: ابْتَغَيْتُ الْبَيْتَ سَكْنًا لِي، أَيْ: اتَّخَذْتُهُ⁽⁸⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالْابْتِغَاءِ فِي الْآيَةِ: الطَّلَبُ وَالْقَصْدُ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: حَصُولُ الْمَقْصُودِ مِنْ إِسْمَاعِ النَّاسِ الْقُرْآنَ، وَيَنْتَفِي تَوْهُمُ قَصْدِ التَّطَاوُلِ عَلَيْهِمْ⁽⁹⁾.

(6) ﴿سَبِيلًا﴾: أَصْلُ (سبل) يَدُلُّ عَلَى إِسْرَالِ شَيْءٍ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وَعَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، فَالْأَوَّلُ مِنْ قَوْلِكَ: أَسْبَلْتُ السُّتْرَ، وَأَسْبَلْتُ السَّحَابَةَ مَاءَهَا وَبِمَائِهَا، وَأَمَّا الثَّانِي: فَالْمُتَدُّ طَوْلًا: السَّبِيلُ وَمَا وَضَحَ مِنْهُ، وَهُوَ الطَّرِيقُ؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ⁽¹⁰⁾، يُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ، وَالتَّأْنِيثُ أَغْلَبُ، وَسَبِيلُ اللَّهِ: طَرِيقُ الْهُدَى الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، وَجَمَعَهُ: سُبُلٌ⁽¹¹⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالسَّبِيلِ فِي الْآيَةِ: الطَّرِيقُ، وَالْمُرَادُ: وَقَصْدُ بَيِّنِ الْجَهْرِ بِقِرَاءَتِكَ وَالْإِسْرَارِ بِهَا طَرِيقًا وَسَطًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفت).

(2) ابن سيده، مقاييس اللغة: (خفت).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (خفت).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 238 / 15.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغى).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغى، بغا).

(7) الرَّاغِب، المفردات: (بغى)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 35.

(8) الخليل، العين، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا - بغى).

(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 238 / 15.

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).

(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، للحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

❖ المعنى الإجمالي:

أَمَرَ اللَّهُ تعالى رسوله ﷺ بالتَّوَسُّط في القراءة، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال: وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ يَا مُحَمَّدُ ﷺ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي صَلَاتِكَ، وَدُعَائِكَ وَذِكْرِكَ لِلَّهِ فِيهَا، حَتَّى لَا يَسْمَعَهَا الْمُشْرِكُونَ فَيَسْبُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تُسِرَّ بِذَلِكَ، حَتَّى لَا يَكَادَ يَسْمَعَهَا مِنْ يَكُونُ خَلْفَكَ، وَاسْلُكْ طَرِيقًا وَسَطًا بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ، وَهَذَا بَيَانٌ لِلْأَسْلُوبِ الْقَاصِدِ، الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يُدْعَى اللَّهُ ﷻ بِهِ، وَيُعْبَدُ عَلَيْهِ⁽¹⁾.

القراءة بين
المخافة والجهر
هي الوسط،
وخير الأمور
أوسطها

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

عَلَّةُ فَصْلِ جُمْلَةٍ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

فَصَلَ الْبَيَانُ الْإِلَهِيَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ عَنْ سَابِقَتِهَا، وَلَمْ يَرْبُطْ بَيْنَهُمَا بِالْعَاطَفِ؛ لَكُنْ جُمْلَةً ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ وَقَعَتْ اسْتِثْنَاءً بَيَانِيًّا؛ إِذْ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ شَبْهُ كَمَالِ الْإِتِّصَالِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ إِيمَانُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ بِالْقُرْآنِ، وَإِدْعَانُهُمْ لَهُ، وَتَرْكُهُمْ لِأَدْيَانِهِمْ مُوجِبًا لِكُلِّ مَنْ لَهُ أَدْنَى إِنْسَانِيَّةٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وَيَقْبَلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُو مِنْ أَنْزَلَهُ دُونَ غَيْرِهِ دَائِمًا، كَانَ الْمُفْتَرَضُ مِنَ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يُؤْمِنُوا وَأَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا فَعَلَّمَنَا كَيْفَ نَدْعُو وَبِأَيِّ اسْمٍ نَهْتَفِ؟ جَاءَ الْجَوَابُ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾⁽²⁾.

الاستئناف
البياني يدلُّ أن
الكبر منهم من
السؤال الذي
تستلزمه الفطرة
والعقل

نكتة تلوين الخطاب في الانتقال من الإخبار إلى مخاطبة النبي ﷺ:

انْتَقَلَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِي مِنَ الْخَبَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ إِلَى مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ دُونَ مُخَاطَبَتِهِمْ مُبَاشَرَةً؛ تَلْوِينًا فِي الْخِطَابِ، وَتَنْبِيهًا لَهُمْ عَلَى سُوءِ حَالِهِمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فِي الْخِطَابِ؛

في مخاطبة
النبي ﷺ
والإعراض عنهم
في الخطاب
تنبيه لهم على
سوء حالهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15 / 136، والواحدي، الوجيز، ص: 651، والسَّعْدِي، تيسير الكريم
الرحمان، ص: 468.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12 / 231.

ذلك أَنَّ الانتقال من الغيبة إلى الحضور يُنشئ عند المتلقّي نوعاً من التنبُّه، ويستدعيه للوقوف والتأمّل لصورة الانتقال المفاجئ، ومِمَّا يزيد هذا التنبُّه أَنَّهُ لم يلتفت إليهم ليُخاطبهم مباشرةً استخفافاً بهم، بما يُنبِّه الإحساس عندهم بحدّة التحوُّل عنهم، وإنّما التفت في الخطاب إلى رسول الله ﷺ؛ تعظيماً له وتأكيداً لرسالته، وأنّه المُكلّف بإيصال الرّسالة إليهم بشارّة وإنذاراً، وإيماءً إلى أنّ الدّين الصّحيح لا يكون إلّا عن طريقه ﷺ، وفي هذا كلّ ما يحملهم على الإيمان بالله وبرسوله.

سِرُّ استعمال الفعل «أَدْعُوا» دون غيره:

في التّعبير
بالدّعاء ثراءً
في المعنى بما
يُناسب السّياق

استعمل البيان القرآني لفظ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقل مثلاً: (قل نادوا) أو (قل سمّوا)؛ وذلك لاتّساع دلالة لفظ «أَدْعُوا»؛ إذ يشمل معنى النِّداء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 52]، ويُستعمل بمعنى التّسمية⁽¹⁾، وفيه معنى الجذب ومُحاولة استمالة الشّيء إليك⁽²⁾، ومعنى العبادة قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106] ومعنى التّضرُّع في طلب أمرٍ ما، والرّغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير والابتِهال إليه بالسُّؤال، قال تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]⁽³⁾، ومعنى الثّناء، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10].

وكذلك فإنّ لفظ «أَدْعُوا» أنسب للسّياق، ولسبب النّزول الذي ورد فيهما اسم «الله» واسم «الرّحمن»؛ إذ الدّعاء لا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسم، في حين النّداء قد يُقال بـ(يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أن يُضمّ إليه الاسم⁽⁴⁾.

(1) الرّأغب، المفردات، ص: 315.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).

(3) الرّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤلّ: (دعو).

(4) الرّأغب، المفردات، ص: 315.

وكذلك لفظُ الدُّعاءِ أنسبُ لما ورد في السياق من التَّهْيِ عن
الجهر؛ إذ النِّداءُ لا يكون إلا برفع الصَّوت⁽¹⁾.

سِرُّ اختصاص اسم ﴿اللَّهُ﴾ واسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالذكر:

اختصَّ البيان القرآني اسمَ ﴿اللَّهُ﴾ واسمَ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ دون
غيرهما بالذكر في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؛
لأنَّهما أصلُ بَقِيَّةِ أسماءِ اللَّهِ تعالى⁽²⁾، فكل أسماءِ اللَّهِ الحُسنى
ترجعُ معانيها إليهما وفيه دلالة على أنَّهما أشرفُ من سائرِ
الأسماءِ، فاسمُ ﴿اللَّهُ﴾ هو أعظم الأسماء المذكورة؛ لكونه جامعاً
لجميع الأسماء والصفات، في حين سائر الأسماء لا يدلُّ أحادها
إلى على آحاد المعاني، من علم أو قدرة أو فعل أو غير ذلك، وهو
عَلَمٌ على الذاتِ إذ لا يُطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً⁽³⁾،
و﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي المُنعم بجلالِ النعم الدُّنيويَّة منها والأخرويَّة كمَّا
وكيفاً، الظَّاهرة منها والباطنة⁽⁴⁾، وكونهما ﴿اللَّهُ﴾ و﴿الرَّحْمَنُ﴾
اسمين مُختصين باللَّهِ تعالى، فاللَّهُ للهيبة والعظمة، والرَّحمن
للرَّأفة والرَّحمة⁽⁵⁾.

ولكون ذِكْرهما أكثرَ مُناسبة بين سورة الإسراء وبين سورة النحل
التي سبقتها؛ والتي ورد فيها من التَّنويه باسم الجلالة ما لم يردَّ
في غيرها، والتي ذُكر فيها من النعم ما لم يرد في غيرها أيضاً،
مِمَّا يُناسب الرَّحمة العامَّة، ومنها تعلِيمُ البيان، وهذا أليقُ باسم
الرَّحمان، كما أنَّ تَكَرَّارَ الرَّحمة في سورة الإسراء والذي بلغ ثمانِي
مرات يُراد به العموم، فكان اسم الرَّحمان بها أليق⁽⁶⁾.

اسمُ (الله)
واسمُ (الرحمان)
أصلُ بَقِيَّةِ
أسماءِ الله
تعالى وأعظمها

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 38.

(2) ابن تيمِّية، مجموع الفتاوى: 1/ 379.

(3) الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 61.

(4) الصَّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1078.

(5) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 266.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 536 - 537.

نُكْتة تقديم اسم الجلالة ﴿الله﴾ على اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وعلاقة ذلك بسبب النُّزول:

اسم الجلالة
هو الاسم
الجامع لجميع
معاني الأسماء
الحُسنى فلا
يتقدّم عليه غيره

قدّم البيانُ القرآني اسمَ ﴿الله﴾ على اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾؛ للدلالة على أنَّ اسم ﴿الله﴾ أعظمُ الأسماءِ⁽¹⁾، فهو الاسمُ الجامع لجميع معاني الأسماءِ الحُسنى⁽²⁾.

وكذلك لمراعاة سبب النُّزول الذي قدّم فيه ذِكْرُ اسم ﴿الله﴾، فقد ورد "أَنَّ الْمُشْرِكِينَ فيما ذكر سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يدعو رَبَّهُ: يَا رَبَّنَا اللهُ، وَيَا رَبَّنَا الرَّحْمَان، فَظَنُّوا أَنَّهُ يدعو إِلَهَيْن، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ هذه الآيَةَ احتجاجاً لِنَبِيِّهِ"⁽³⁾، وقد رجَّح ابن عاشور هذا السَّبب على غيره؛ لكونه أنسب مع ألفاظِ الآيَةِ؛ لاقتصارِهِ على اسمِ الله واسمِ الرَّحْمَانِ⁽⁴⁾.

دلالة ﴿أَوْ﴾ وأثرها في المعنى:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ للإباحة، أي: إنْ دعوتَ بأحدهما كان جائزاً، وإنْ دعوتَ بهما جميعاً كان جائزاً⁽⁵⁾.

وهناك من المُفسِّرين من عَبَّرَ عن معناها بالتَّخيير، أي: التَّخيير لنا بين أنْ ندعوه بأيِّ الاسمين شئتُنا، والمعنى: ادعوه بهذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمُسَمَّى واحدٌ⁽⁶⁾.

والتَّعبير بالإباحة أصحُّ؛ لأنَّ التَّخيير بين المعطوفين يكون حين يمتنع الجمع بينهما، أي هو بيانٌ أنَّ الواجب أحدها لا الكلُّ وله الخيارُ، أمَّا الإباحة فتكون حيث لا يمتنع الجمعُ بينهما⁽⁷⁾، له أن يفعلهما، وله أن يفعل أحدهما⁽⁸⁾.

(1) الخطيب الشَّربيني، السَّراج المنير: 345 / 2.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 537 / 11.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 580 / 17.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 236 / 15.

(5) المُجاشيعي القيرواني، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 297.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 236 / 15.

(7) السُّبوطي، الإِتقان في علوم القرآن: 208 / 2.

(8) أبو حفص السُّفسي، التَّيسير في التَّفسير: المُقدِّمة / 125.

الدَّلالة على
الإباحة لأنَّ
الجمع بين
الاسمين في
الدُّعاء أكملُ

سِرُّ تَكَرُّارِ ﴿أَدْعُوا﴾:

أَطْنَبَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ بِتَكَرُّارِ ﴿أَدْعُوا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾. وَلَمْ يَقُلْ: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ الرَّحْمَنَ)؛ تَحْقِيقًا لِاِكْتِمَالِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ تَسْمِيَةِ اللَّهِ بِالْأَسْمِ الْجَلِيلِ، وَتَسْمِيَتِهِ بِأَسْمِ الرَّحْمَانِ، وَتَوْكِيدًا لِهَذِهِ التَّسْوِيَةِ.

عِلَّةُ الْحَذْفِ:

فِي قَوْلِهِ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ مَعْنَى ﴿أَدْعُوا﴾ هُوَ (نَادُوا) فَلَا حَذْفَ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ يَلْزُمُ الْإِشْتِرَاكُ لَوْ كَانَ الْمُسَمَّى مُتَعَدِّدًا، أَوْ عُطِفَ الشَّيْءُ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا، بَلْ هُوَ بِمَعْنَى سَمَّوْا فَالْحَذْفُ وَاقِعٌ⁽¹⁾؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، أَيْ سَمَّوْهُ اللَّهُ أَوْ الرَّحْمَانُ أَيَّا مَا تُسَمُّونَهُ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى⁽²⁾، وَحُذِفَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ مِنَ الْفَعْلَيْنِ وَأُبْقِيَ الثَّانِي لِدَلَالَةِ الْمَقَامِ⁽³⁾، أَيْ حُذِفَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ إِيْجَازًا وَاختِصَارًا لِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَى الْمَحْذُوفِ، وَلِأَنَّ ذِكْرَهُ بَعْدَ دَلَالَةِ الْمَقَامِ عَلَيْهِ يُعَدُّ عَبَثًا.

إِيْثَارُ اسْمِ ﴿الرَّحْمَنَ﴾ دُونَ (الرَّحِيمِ):

الرَّحْمَانُ وَالرَّحِيمُ اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ أَثَرُ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الرَّحْمَنِ دُونَ الرَّحِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؛ لِأُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: لِأَنَّ ﴿الرَّحْمَنَ﴾ اسْمٌ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ وَلَا يُوصَفَ بِهِ غَيْرُهُ، وَلِذَا عَادِلٌ فِي الْآيَةِ بِهِ الْأَسْمُ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ﴿اللَّهُ﴾، وَالرَّحِيمُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيُقَالُ رَجُلٌ رَحِيمٌ، وَلَا يُقَالُ رَحْمَانٌ⁽⁴⁾.

فِي الْإِطْنَابِ
تَحْقِيقٌ وَتَوْكِيدٌ
لَاكْتِمَالِ
التَّسْوِيَةِ بَيْنِ
الدَّعَاءِ بِأَسْمِ
اللَّهِ وَأَسْمِ
الرَّحْمَانِ

الْإِيْجَازُ
وَالْإِخْتِصَارُ بَعْدَ
دَلَالَةِ الْمَقَامِ أَبْلَغُ
مِنَ الذِّكْرِ

الرَّحْمَانُ اسْمٌ
مُخْتَصٌّ بِهِ
سُبْحَانَهُ وَلَا
يُقْتَصَرُ عَلَى
الرَّحْمَةِ فَقَطْ

(1) الشُّبْكِيُّ، عُرُوسُ الْأَفْرَاحِ فِي شَرْحِ تَلْخِيصِ الْمِفْتَاحِ: 1/ 379.

(2) الرُّمَّخَشَرِيُّ، الْكُشَافُ: 2/ 700، وَالْقَزْوِينِيُّ، الْإِيْضَاحُ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ: 2/ 161.

(3) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15/ 237.

(4) ابْنُ مَنظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (رَحِمَ)، وَالسَّيِّمِيُّ الْحَلَبِيُّ، الذُّرُّ لِلصُّونِ: 34/ 1.

الثاني: (الرَّحِيم) قد يكون بمعنى المرحوم، كما يكون بمعنى الرَّاحِم⁽¹⁾، فالأول لا يتناسب مع جلال الله، والثاني له دلالة قاصرة بالمقارنة مع اسم الرحمان.

الثالث: لأنَّ العربَ - كما قيل - لا يعرفون الرَّحْمَانُ إِلَّا رحمان اليمامة، وفي صحاح السَّيِّرة أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عندما أَخَذَ عَلِيٌّ عليه السلام يَكْتُبُ الْعَهْدَ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ، قَالُوا أَمَّا الرَّحِيمُ فَتَعْرِفُهُ، وَأَمَّا الرَّحْمَنُ فَلَا نَعْرِفُهُ، اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ؛ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَّ بِهَذَا أَنَّ الرَّحْمَانَ اسْمُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ كَافِرُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى⁽²⁾.

الرابع: اكتفاءً بِذِكْرِ **﴿الرَّحْمَنُ﴾** عن (الرَّحِيم) حسب رواية أخرى في سبب النُّزُول: "كَانَ النَّبِيُّ عليه السلام سَاجِدًا يَدْعُو يَا رَحْمَانُ يَا رَحِيمُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا، وَهُوَ يَدْعُو مَثْنَى مَثْنَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ"⁽³⁾، "فَالْاِقْتِصَارُ عَلَى التَّخْيِيرِ فِي الدَّعَاءِ بَيْنَ اسْمِ اللَّهِ وَبَيْنَ صِفَةِ الرَّحْمَانِ اِكْتِفَاءً أَيْ: أَوِ الرَّحِيمِ"⁽⁴⁾.

الخامس: لأنَّ الرَّحْمَنَ لَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ فَقَطْ؛ وَقَدْ غُلِطَ مِنْ قَصَرِ مَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الْعَادِلُ قَالَ تَعَالَى: **﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾** [الفرقان: 26]، وَالْمَلِكُ يَسْتَدْعِي الْعِظَمَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالرَّحْمَةَ لِخَلْقِهِ لَا أَنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾** [الفرقان: 60]، وَإِنَّمَا يَصْلُحُ السُّجُودُ لِمَنْ لَهُ الْعِظَمَةُ وَالْقُدْرَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾** [مريم: 18]، وَلَا يُعَاذُ إِلَّا بِالْعَظِيمِ الْقَادِرِ عَلَى الْحِفْظِ وَالذَّبِّ⁽⁵⁾.

معنى **﴿أَيَّا﴾ في قوله **﴿أَيَّا مَا تَدْعُوا﴾**، وإعرابها:**

(أَيَّ) اسْمُ اسْتِفْهَامٍ فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ سَوْأَلٌ عَنْ تَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الْبَعْضِيَّةِ، وَتَقْدِيرِهِ فِي الْآيَةِ: بِأَيِّ الْأَسْمَاءِ تَدْعُوا⁽⁶⁾، وَهُوَ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ مَفْعُولٌ بِهِ لـ **﴿تَدْعُوا﴾**، وَالتَّنْوِينُ عَوْضٌ عَنِ الْمُضَافِ الْمَحذُوفِ.

(1) الرَّازِي الحنفي، مُخْتَارُ الصَّحَاحِ: (رحم).

(2) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 8 / 4478.

(3) ابْنُ جَرِيرٍ، جَامِعُ الْبَيَانِ: 17 / 580.

(4) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15 / 236.

(5) الزَّرْكَشِيُّ، الْبَرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ: 2 / 503.

(6) اللَّؤْدِيُّ بِاللَّهِ، الطَّرَازُ لِأَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ: 3 / 159.

الدُّعَاءُ بِأَيِّ اسْمٍ
مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ
الْحُسْنَى جَائِزٌ
وَحَسَنٌ

فإذا اقترنت بها ﴿مَا﴾ التي تأتي للتوكيد، أفادت الشرط كما تفيده (كيف) إذا اقترنت بها (ما)، ولذلك جُزِمَ الفعل بعدها وهو ﴿تَدْعُوا﴾ شرطًا، وجيء لها بجوابٍ مُقْتَرِنٍ بالفاء، وهو ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾⁽¹⁾، ومعنى الشرط فيها أفادَ اتِّصالَ تعلق حصول الجواب بحصول الشرط وتلازمهما، أي الدُّعَاءُ بِأَيِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى جَائِزٌ وَحَسَنٌ.

فائدة ﴿مَا﴾ في قوله ﴿أَيَّا مَا تَدْعُوا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيَّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تحتمل معنى التأكيد، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحَ نَدِيمِينَ﴾ [المؤمنون: 40]، أي لتأكيد ما في (أَيَّ) من الإبهام⁽²⁾، وتوكيد الكثرة فيها، أي أَيَّا من الأسماء تدعو مهما يكن قدرها⁽³⁾.

وقيل: هي بمعنى (أَيَّ شيء) كُرِّرَتْ مع اختلاف اللَّفْظَيْنِ للتوكيد، كقولك: ما رأيت كاليَلة ليليَلة⁽⁴⁾.

وتحتمل معنى الشرطية، أي دخلَ شرطٌ على شرطٍ، وجُمِعَ بينهما، أي بينها وبين (أَيَّ) تأكيدًا لما تقدّم، وقيل: (ما) شرطية عند مَنْ وقف على ﴿أَيَّا﴾، وجعل المعنى: أَيَّ الاسمين دَعَوْتُمُوهُ به جاز، ثم استأنف ﴿مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني أَنَّ ﴿مَا﴾ شرط ثانٍ، و﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾ جوابه، وجوابُ الأوّل مقدّر، وهذا مردودٌ بأنَّ ﴿مَا﴾ لا تُطْلَقُ على آحاد أولي العلم، وبأنَّ الشرط يقتضي عمومًا، ولا يصحُّ هنا، وبأنَّ فيه حَذْفَ الشرط والجزاء معًا⁽⁵⁾.

في (ما) بيانٌ
وتوكيدٌ لكثرة
أسمائه
الحسنى
سبحانه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 236 / 15.

(2) الرّمخشي، الكشاف: 700 / 2، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 270 / 3، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 200 / 5.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4478 / 8.

(4) اللّجائبي القيرواني، الثّكت في القرآن الكريم، ص: 297.

(5) السّمين الحلبي، الدّر للصون: 429 / 7.

موقع جملة ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾:

حُسْنُ جميعِ
أَسْمَائِهِ
يَسْتَدْعِي حُسْنَ
ذَيْنِكَ الاسمينِ
الشَّرِيفَيْنِ

أَصْلُ الْكَلَامِ: أَيُّ مَا تَدْعُوا فَهُوَ حَسَنٌ أَوْ جَائِزٌ، فَوُضِعَ مَوْضِعُهُ
﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: لِلْمُبَالَغَةِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؛
إِذْ حُسْنُ جَمِيعِ أَسْمَائِهِ يَسْتَدْعِي حُسْنَ ذَيْنِكَ الْاسْمَيْنِ⁽¹⁾، فَأَقِيمَ فِيهِ
دَلِيلُ الْجَوَابِ مَقَامَهُ، وَهُوَ أَيْلُغُ⁽²⁾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ عِلَّةُ الْجَوَابِ، وَالتَّقْدِيرُ: (أَيَّ اسْمٍ
مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى تَدْعُونَ فَلَا حَرَجَ فِي دُعَائِهِ بَعْدَ أَسْمَاءٍ؛ إِذْ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَإِذَا الْمُسَمَّى وَاحِدٌ)⁽³⁾.

معنى اللّام في قوله ﴿فَلَهُ﴾:

لَهُ وَحْدَهُ
الْأَسْمَاءُ الْكَامِلَةُ
فِي الْحُسْنِ

لَام ﴿فَلَهُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ هِيَ لَامُ
الِاسْتِحْقَاقِ؛ لِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بَيْنَ مَعْنَى وَذَاتِ، وَفِي اسْتِعْمَالِهَا إِشْعَارٌ
بِقَصْرِ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ جَاءَ مَعَ تَقْدِيمِ اسْمِ
الْجَلَالَةِ الْمُضْمَرِّ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَهُ﴾.

فائدة تقديم الجارّ والمجرور ﴿فَلَهُ﴾ على المُسند إليه:

الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى لِلَّهِ
وَحْدَهُ وَتَسْمِيَتُهُ
بِأَيٍّ مِنْهَا حَسَنٌ
فَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ

قَدَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ وَهُوَ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ
﴿فَلَهُ﴾ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛
لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ، أَيْ لِإثْبَاتِ حَصْرِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى بِاللَّهِ
وَإِخْتِصَاصِهِ بِهَا، وَلِتَأْكِيدِ اسْتِحْقَاقِهِ إِيَّاهَا، وَالْمَعْنَى: اتَّسَمَّ اللَّهُ
بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَإِخْتِصَاصَهُ بِهَا وَحْدَهُ أَمْرٌ ثَابِتٌ، فَإِذَا
أُطْلِقَتْ فَلَا يُرَادُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ؛ أَيْ: لَا يَوْجَدُ لغيرِ اللَّهِ اسْمٌ يُوصَفُ
بِأَنَّهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى⁽⁴⁾، وَأَنَّ أَيَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَّافُ: 2/ 700، وَالبَيْضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ: 3/ 270، وَأَبُو السُّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ
السَّلِيمِ: 5/ 200.

(2) الْقَاسِمِيُّ، مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ: 6/ 522.

(3) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15/ 237.

(4) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 9/ 186.

تدعون فلا حرج في دعائه بعدة أسماء؛ إذ له الأسماء الحُسنى،
وإذ المُسمَّى واحد⁽¹⁾.

ولا يبدو هذا الأثر واضحاً في حالِ عدم استعمالِ أسلوبِ
القصر، كما لو قال: (الأسماء كاثثة لله) فهي جملةٌ خبريةٌ تحتُمَلُ
التَّصديقَ والتَّكذيبَ.

عِلَّةُ الإِضْمَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِظْهَارِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾:

أضمر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليلَ (الله) في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا
مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، ولم يُظهره؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إضمار؛
فقد سَبَقَ التَّصريحُ باسمِ الله في الآية ذاتها ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا
الرَّحْمَنَ﴾، فإظهاره تكرارٌ لا حاجةَ له، وإضماره أَيْبُنٌ للمعنى، وأوجزُ
وأخصبُ للفظ، كما أنَّ الإِضْمَارَ هُنَا أنسبُ لسياقِ الكلامِ الذي يُفَرِّرُ
التَّسويةَ في أسماءِ الله الحُسنى، وأنَّ المُسمَّى واحدٌ سُبْحانه، أي إنَّ
الضَّميرَ في ﴿فَلَهُ﴾ ليس بِراجعٍ إلى أحدِ الاسمين المذكورين، ولكن
إلى مُسمَّاهُمَا؛ وهو ذاته تعالى؛ لأنَّ التَّسْمِيَةَ لِلذَّاتِ لا لِلْإِسْمِ⁽²⁾.

إِثَارَ اسْتِعْمَالِ ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ وَالْعَدُولِ عَنْ (الْصِّفَاتِ):

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالأسماءِ الحُسنى، وعدَلَ عن لفظِ الصِّفاتِ
في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ لأُمُور:

الأوَّل: لاتِّساعِ دلالةِ لفظِ ﴿الْأَسْمَاءُ﴾؛ إذ الأسماءُ الحُسنى تدلُّ
على أمرين: الأوَّل: ذاتُ الله بالتَّخصيصِ أو بالغلبة، والثَّاني:
صفاتُ الكمالِ القائمةُ به، مثل: أسماءِ الله (الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ
والْحَكِيمُ والعَلِيمُ)، فهي تدلُّ على ذاتِ الله، وما قام به من الرَّحمةِ
والْحكمةِ والعِلْمِ، بخلافِ الصِّفةِ فَإِنَّهَا تدلُّ على أمرٍ واحدٍ؛ إذ هي
نعوتُ الكمالِ القائمةَ بذاتِ الله تعالى، كالرَّحمةِ والحكمةِ والعِلْمِ.

الإِضْمَارُ أَيْبُنٌ
لِلْمَعْنَى وَأَوْجَزُ
وَأَخْصَبُ لِلْفِظِ

الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى أَوْسَعُ
دَلَالَةً وَأَدْلُّ عَلَى
الْمَطْلُوبِ

(1) ابن عاشور، التَّحْريِرُ والتَّنْويِرُ: 237/15.

(2) الطَّيْبِيُّ، فتوح الغيب: 398/9.

الثاني: لمناسبته للسياق؛ إذ معنى ﴿أَدْعُوا﴾ سَمُّوا، أي سَمَّوه الله أو سَمَّوه الرَّحْمَن، وهذا يُناسبه التعبير بالأسماء الحُسنى التي تتحدَّث عن الذات لا الصِّفات.

الثالث: لمناسبته لسبب النزول الذي يَتَضَمَّنُ شُبْهَةَ الْمُشْرِكِينَ حول أسماءِ الله لا حول الصِّفات، بأنَّ النَّبِيَّ يدعو إلى إلهين اثنين اسمهما ﴿الله﴾ و﴿الرَّحْمَنُ﴾، أي المراد بدعائه بهما المُسمَّى فيلزم منه التعدُّد في المُسمَّى، كما ظنَّ أبو جهل، فَردَّ عليهم القرآن أنَّ المراد بهما ﴿الله﴾ و﴿الرَّحْمَنُ﴾ الاسم لا المُسمَّى فلا يلزم التعدُّد إلَّا في الاسم⁽¹⁾؛ لبيِّن لهم أنَّها أسماءٌ لذاتٍ واحدة.

معنى (أل) في قوله ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾:

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ استغرافيةً، تَقْيِدُ شمول اختصاص الله ﷻ بِكُلِّ اسم كريم، سَمَّى به نفسه في القرآن أو السُّنَّة، فالبابُ غيبيٌّ توقيفيٌّ لا دخلٌ للعقل فيه إلَّا الاتِّباع والتَّسليم.

نكتة وصف الأسماء بـ ﴿الْحُسْنَى﴾:

﴿الْحُسْنَى﴾ مُؤَنَّث (الأحسن)، وهي صيغة تفضيل مُحلَّاة بـ (أل)، والتَّفضيل مَظَنَّةُ العهد، فـ (أل) عهديَّةٌ تشيرُ إلى أسماءٍ بعينها اختصَّ بها مُسمَّى بعينه لا يُشاركه في كمالها أحد، والمعنى: فله وحده الأسماءُ الحُسنى التي بلغتْ غايةَ الحُسْنِ، ومعنى كونها أحسنَ الأسماء: أنَّها مُسْتَقَلَّةٌ بمعاني التَّحْمِيد والتَّقْدِيس والتَّعْظِيم⁽²⁾؛ لدلاتها على معانٍ شريفةٍ هي أحسنُ المعاني؛ لأنَّ مَعْنَاهَا ذاتُ الله أو صفاته⁽³⁾.

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَا تَجْهَرُ﴾، وصِلَةُ هذه الجُملة بما قبلها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عاطفةٌ،

(1) الطَّبِي، فتوح الغيب: 397 / 9.

(2) الرَّمْخُسْرِي، الكُشَاف: 700 / 2.

(3) الصَّوْبي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1077.

ذات الله واحدة
تدُلُّ عليها
كُلُّ أسمائه
الحُسنى

أسماءُ أحسن
الأسماءِ لِإِنْبَائِهَا
عن أحسن
المعاني وأشرفها

والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾، وهذه الواو أكدت المعنى المشترك بين الجملتين؛ وهو الحديث عن الدعاء، إلا أن الجملة المعطوف عليها في أول الآية هي الأمر بالدعاء ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾، والجملة المعطوفة في آخر الآية في الصفة التي يكون الدعاء عليها من مجاوزة المخافة والتقصير عن الجهر ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا﴾⁽¹⁾.

دلالة التهي في قوله ﴿وَلَا تَجْهَرُ﴾:

التهي هو نهى عن الجهر المفرط⁽²⁾؛ لأنه لا واسطة بين مطلق الجهر والمخافة، وهو نهى تنزيه وندب⁽³⁾، يفهم منه الإرشاد إلى أنه لا ينبغي الصياح والصراخ في الصلاة؛ لأن ذلك ليس من أدب الدعاء في الصلاة، ولا يجوز الإخفات إلى درجة بعيدة، فهو أمر إرشادي، ولذلك شرع الإخفات في الصلوات النهارية، والجهر في الصلوات الليلية، ولعل الآية غير ناظرة إلى التشريع الثابت في الروايات، وإنما هي بصدد الإرشاد إلى الوسطية في كيفية الجهر والإخفات.

إيثار لفظ ﴿تَجْهَرُ﴾ دون ﴿تُعْلَنُ﴾ مثلاً:

استعمل البيان القرآني لفظ ﴿وَلَا تَجْهَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ دون لفظ (العن)؛ لكون لفظ (الجهر) أنسب للسياق والمعنى المقصود؛ لأن الإعلان لا يقتضي رفع الصوت، أي قد يكون بصوت وقد لا يكون بصوت، بخلاف الجهر فإنه يقتضي رفع الصوت، ومنه يقال: رجل جهر وجهوري إذا كان رفيع الصوت⁽⁴⁾، كما أن الجهر يتضمن كذلك رفع الصوت بشدة وإفراط؛ إذ أصل الجهر ظهور الشيء بإفراط، وهذا أنسب كذلك مع سبب نزول الآية

أَوَّلُ الْآيَةِ أَمَرَ
بِالدُّعَاءِ وَآخَرُهَا
صِفَةُ هَذَا الدُّعَاءِ

التهي نهى تنزيه
وندب يتحقق
به أدب الدعاء
وقراءة القرآن

لفظ الجهر
أنسب مع سياق
الآيات وسبب
نزولها

(1) الطحاوي، أحكام القرآن: 1/ 241.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 238.

(3) القنوني، حاشيته على تفسير البضاوي: 11/ 614 - 615.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

الذي يَنْصُ على أَنَّ الأمرَ مُتَعَلِّقٌ برفعِ الصَّوْتِ، فقد ورد عن ابن عباسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: "نَزَلَتْ ورسولُ الله ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ: فكانوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَبَّوْا الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾"⁽¹⁾، وروى أَنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه كان يُخْفِي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: "أناجي رَبِّي وقد عَلِمَ حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفعُ صوته ويقول: أَزْجُرُ الشَّيْطَانَ، وَأَوْقُظُ الْوَسْطَانِ، فَأمرَ أبا بكرٍ أَنْ يرفعَ قليلاً وعمرَ أَنْ يخفضَ قليلاً"⁽²⁾.

المُرَادُ بِالصَّلَاةِ هُنَا وَعِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَجَازِ فِيهَا:

الجهرُ والمُخَافَةُ
من نَعَوٍ
الْأَقْوَالِ لَا من
نَعَوِ الْأَفْعَالِ

تَحْتَمِلُ الصَّلَاةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ الدُّعَاءَ، وقد روي عن أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ⁽³⁾، وَتَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقِرَاءَةِ صَلَاتِكَ، بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ⁽⁴⁾، وَتَحْتَمِلُ كَذَلِكَ الْعِبَادَةُ الْمَعْرُوفَةُ وَهِيَ الصَّلَاةُ، وَمِنْ فَسَّرَ الصَّلَاةَ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا أَرَادَ قِرَاءَتَهَا خَاصَّةً؛ لِأَنَّهَا الَّتِي تُوصَفُ بِالْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ⁽⁵⁾، أَي: عَلَى الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ بِقَرِينَةٍ أَنَّ الْجَهْرَ وَالْمُخَافَةَ مِنْ شَأْنِ الْقِرَاءَةِ لَا أَفْعَالِ الصَّلَاةِ⁽⁶⁾، وَالْعَلَاقَةُ جَزَائِيَّةٌ، بِإِطْلَاقِ اسْمِ الْكُلِّ (الصَّلَاةُ) عَلَى الْجُزْءِ (القِرَاءَةُ)، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَعْظَمَ فِي الْآيَةِ الصَّلَاةُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78] فَقَدْ أُطْلِقَ اسْمُ الْجُزْءِ (القِرَاءَةُ) عَلَى الْكُلِّ (الصَّلَاةُ)؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَعْظَمَ هُنَاكَ الْقِرَاءَةُ فِي الْفَجْرِ⁽⁷⁾.

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ [الإسراء: 110]،

الحديث رقم: (4445)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب: الصَّلَاةُ، باب: التَّوَسُّطُ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ، الحديث رقم: (446).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 586 / 17.

(3) صحيح البخاري، كتاب: التَّوْحِيدِ، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسْبِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: 13]، الحديث رقم: (7088).

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 522 / 6.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 237 / 15.

(6) ابن العربي، أحكام القرآن: 218 / 3، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 614 / 11.

(7) البقاعي، نظم الدرر: 540 / 11.

ويؤكد أنَّ المراد عدم الجهر بالقراءة في الصَّلاة ما ورد في سبب النُّزول، فقد كان النبي ﷺ إذا صَلَّى بأصحابه رفعَ صوته بالقرآن، فإذا سمعَ ذلك المشركون، سَبَّوا القرآنَ ومن أنزله⁽¹⁾، وتسمية القراءة صلاة؛ لكونها من أهمِّ أركانها، كما تُسمَّى الصَّلاة ركعة⁽²⁾. وورد عن بعض السَّلف أقوالٌ فيمن فسَّرها بمعنى الصَّلاة: فقال عكرمة أنَّه نهى عن الجهر بفعل الصَّلاة؛ لأنَّه كان يجهر بصلاته بمكة فتؤذيه قريش، فخافتَ بها وأسرَّ، فأمره الله ألاَّ يجهر بها كما كان، ولا يُخافتَ بها كما صار، ويبتغي بَيِّنَ ذلك سبيلاً، وقال ابن سيرين أنَّه نهى عن الجهر بالتَّشهد في الصَّلاة، وقال الحسنُ البصري: يعني لا تجهر بصلاتك تُحسِّنُها مرأياً بها في العلانية، ولا تُخافتَ بها تسيئُها في السَّريَّة، وهذا إنَّ صَحَّ فيكون خطاباً للنَّبِيِّ ﷺ والمراد أُمَّتُه؛ إذ لا يجوز عليه شَيءٌ من ذلك⁽³⁾، والأوَّل هو الأظهر⁽⁴⁾.

سِرُّ إفراد الصَّلاة والعدول عن جمعها:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ بصيغة الإفراد، وعدَلَ عن صيغة الجمع، فلم يقل: (ولا تجهر بصلواتك)؛ اعتباراً بكون الصَّلاة اسمَ جنسٍ يعمُّ جميعَ الصَّلوات التي نهى فيها عن الجهر والإخفات، وأمر بالوسط بينهما، ولأنَّه لا فائدة من التَّعبير بالجمع (بصلواتك)؛ إذ لا حاجةٌ هنا للإشارة إلى أعدادها وأنواعها، سواء كان المقصود من الصَّلاة في الآية الدُّعاء أو القراءة في الصَّلاة، أو الصَّلاة أو غير ذلك.

التَّوسُّط مطلوبٌ
في كلِّ صلاةٍ نهى
فيها عن الجهر
والإخفات

(1) سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط: 452/8.

(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 522/6.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 217/3.

(4) اللاوري، النُّكت والعيون: 281/3.

نكتة إضافة الصَّلَاة إلى ضمير المُخَاطَب:

في الإضافة إشعارٌ
بمسؤولية المُصَلِّي
عن صحَّة أدائه
صلاته وكمالها

أضافَ البيانُ الإلهيَّ مُفردة الصَّلَاة إلى ضمير المُخَاطَب (الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ إشارةً إلى إشعارِ المصلي بأهمية الصَّلَاة، وبمسؤوليته عن صلاته التي يُؤدِّيها، فهي صلاته وهو المَسْؤُولُ عن صحَّة أدائها وكمالها، وسوف يُسأل عنها، وإشعاراً بأهمية المُصَلِّي عند الله؛ إذ إنَّ نسبة الصَّلَاة التي هي ثاني ركنٍ في الإسلام إلى المصلي تدلُّ على علو مكانته عند الله.

علة عطف جملة ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ على ما قبلها:

في العطف
احتراسٌ
واكتمالٌ
للمعنى المقصود
بالتَّهْيِ الإلهي

عطفَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ على جملة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ لما بينهما من معنى مُشترك؛ فكلاهما فعلٌ نهى الله عنه، ولكن علة عطف قوله: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ هو "الاحتراس؛ لكيلا يجعل دعاءه سراً أو صلاته كلها سراً، فلا يَبْلُغُ أَسْمَاعَ الْمُتَهَيِّئِينَ للاهتمام به؛ لأنَّ المقصودَ من النهي عن الجهر تجنُّبُ جَهْرٍ يَتَوَهَّمُ منه الكُفَّارُ تَحَكُّكاً أو تطاولاً"⁽¹⁾، وبتقابل هذين اللَّفْظَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ يَتَضَحُّ المعنى المراد في القول المعطوف عليهما ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، والمعنى: لا تجهرُ بقراءتك تفادياً لشتائم وإيذاء الكافرين، ولا تجعلها غير مسموعة لمن خلفك من المُصَلِّين، وابْتَغِ السَّبِيلَ الوَسْطَ بين الحالتين.

إيثارُ لفظ المُخَافَةِ دون الإسراء:

في التَّعبير
بالإخفات إظهارٌ
لمدى البعد بين
التَّقابُلَيْنِ للنهي
عنهما

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ المُخَافَةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ دون لفظ (الإسراء)؛ لكون لفظ (المُخَافَةِ) أنسبَ للسياق والمعنى المقصود من الإسراء؛ لأنَّ الجهر يُقَابَلُهُ وَيُضَادُّهُ الإخفات⁽²⁾ لا الإسراء الذي هو ضدُّ الإعلان، والآية تأمرُ أَنْ تكون حال القراءة، أو الدُّعاء بين أمرين مُتَقَابِلَيْنِ، قال

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 238 / 15.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (خَفَّتْ).

تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، وهذا أنسب كذلك مع سبب نزول الآية الذي ينص على أَنَّ الأمرَ مُتَعَلِّقٌ بِالصَّوْتِ جَهْرًا وَإِخْفَاتًا، أَضْفَ إلى ذلك أَنَّ الإسْرَارَ لا نهي عنه في الشَّرْعِ، بل هُنَاكَ صَلَوَاتٌ تَكُونُ الْقِرَاءَةُ فِيهَا سِرِّيَّةً، وَالْإِسْرَارُ هُوَ مَا يَكُونُ عَلَى وَجْهِ يُسْمَعُ الْقَارِئُ نَفْسَهُ، وَالذِّكْرُ اللَّسَانِي إِذَا كَانَ بِحَيْثُ يُسْمَعُ الْقَارِئُ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يُؤَثِّرُ بِالْخِيَالِ الَّذِي يُحْدِثُ قُوَّةً فِي الذِّكْرِ الْقَلْبِيِّ الرَّوْحَانِي، وَلَا يَزَالُ يَتَقَوَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، وَتَتَعَكَّسُ أَنْوَارُ هَذِهِ الْأَذْكَارِ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَصِيرُ هَذِهِ الْانْعِكَاسَاتُ سَبَبًا لِمَزِيدِ الْقُوَّةِ وَالْجَلَاءِ وَالْانْكَشَافِ وَالتَّرْقِيِ مِنْ حَضِيضِ ظُلُمَاتِ عَالَمِ الْأَجْسَامِ إِلَى أَنْوَارِ مَدْبَرِ النُّورِ وَالظَّلَامِ⁽¹⁾.

كما أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِخْفَاتِ دُونَ الْإِسْرَارِ لِإِظْهَارِ مَدَى الْبُعْدِ بَيْنَ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنَ الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاتِ - الَّذِي هُوَ الْإِسْرَارُ الَّذِي لَا يَسْمَعُهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ -، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَمْ يَخَافَتْ مَنْ أَسْمَعَ أُذُنِيهِ⁽²⁾، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَخَاطِبُ جَهْرًا إِذْ لَهَنَ تَخَافْتُ *** وَشَتَانُ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ الْخَفْتُ⁽³⁾
ولكون التعبير بالإخفات الذي هو خفوض الصوت من جَزَعٍ⁽⁴⁾
أنسب لحال الصحابة عند نزول الآية، فقد كانوا في مكَّةَ ويتعرَّضون
للأذى بسبب صلاتهم، فهم في خوفٍ من قريش وأذاها.

سِرُّ الطَّبَاقِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاتِ:

جمعَ البيانِ القرآنيِّ بين لفظين مُتَقَابِلَيْنِ فِي الْمَعْنَى، هُمَا: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ و﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾: زِيَادَةٌ فِي تَحْسِينِ الْكَلَامِ وَإِبْضَاحِهِ:

المطابقة دلت
على توسُّط
كمال حال
القارئ أو الداعي
في مناجاته لربه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 444 / 15.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 492 / 3.

(3) الزَّائِبُ، الْفُرْدَاتُ، ص: 289، وَابْنُ فَارَسٍ، مَعْجَمُ مَقَايِيسِ اللُّغَةِ، ص: 187 / 1.

(4) الْكَرْمَانِي، لِبَابِ التَّفَاسِيرِ، ص: 1179.

إذ بضدّها تتميَّز الأشياء، ودلالةً على بيانِ كمالِ حالِ القارئ، أو الدَّاعي في مُناجاته لربِّه، بأنَّ يتَّصفَ بالوسطيَّة التي تميَّزت بها شريعةُ الإسلام، أي إنَّ الآية بما فيها من مُقابلةٍ هي بيانٌ للأسلوبِ القاصِدِ المُستقيم، الذي يُدعى اللهُ ﷻ به، ويُعبد عليه، وهو ألا يكون جهرًا صارخًا بالدُّعاء وبالصَّلاة، ولا خافتًا بهما، وإنَّما هو وسطٌ بينَ هذا وذاك، فالجهرُ الصَّارخُ يُدخلُ على الإنسان شعورًا خفيًّا أنَّ الله بعيدٌ عنه لا يسمعه إلَّا إذا نوديَ نداءً عاليًّا، ولهذا نهى النَّبيُّ أصحابه عنه في بعضِ أسفاره، وكانوا كلِّما علَّوا شُرفًا من الأرض رفعوا أصواتهم بالتَّكبير فتهاهم أنَّ يبالغوا في هذا، فقال: "إنَّكم لا تدعون ربًّا أصمًّا ولا غائبًا"⁽¹⁾، أمَّا الهمسُ بالدُّعاء والمُخافتة به فإنَّه يعزلُ صاحبه عن أن يسمَعَ ما يناجي به الله، ومن ثمَّ فلا يتشكَّلُ له من دعائه من المعاني ما يصلُ شعورهُ بالله، ويُشدُّ عقله وقلبه إليه!⁽²⁾.

فائدة الجارِّ والمجرور في ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ و﴿بِهَا﴾:

النَّهي عن الجهر
والمُخافتة مقيدٌ
بالصَّلاة تحقيقًا
لِحِكْمِهَا

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ النَّهيَ عن الجهرِ والنَّهيَ عن المُخافتةِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ و﴿بِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾؛ لإفادَةِ عدمِ النَّهيِ عن مُطلقِ الجهرِ وعن مُطلقِ المُخافتةِ في كلِّ شيءٍ؛ وإنَّما النَّهيُ عن الجهرِ والمُخافتةِ مُقيَّدٌ بالصَّلاةِ على اختلافِ تفسيرها سواء أُرِيدَ بها الصَّلاةُ أو القراءةُ في الصَّلاة، أو الدُّعاء أو غير ذلك، وذلك لكونِ الجهرِ الصَّارخِ والمُخافتةِ في الصَّلاة لا يتوافقان مع حِكْمِ مشروعيَّةِ الصَّلاة وخُشوعها وخُضوعها.

(1) صحيح البخاري، كتاب: للغايزي، باب: غزوة خيبر، الحديث رقم: (3968).

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 575.

دلالة الواو في قوله «وَأَبْتَعْ»:

الواو في قوله تعالى: «وَأَبْتَعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا»، وبهذا العطف يكتمل المعنى المقصود ويتأكد؛ إذ بعد النهي عن الجهر والمُخافتة يأتي الأمر بأن يطلب القارئ في قراءته طريقاً وسطاً بين الجهر والمُخافتة.

في العطف
اكتمال للمعنى
المقصود وتوكيد
له

إيثار التعبير بلفظ «وَأَبْتَعْ»:

عبر البيان القرآني بلفظ «وَأَبْتَعْ» دون غيره في قوله تعالى: «وَأَبْتَعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا»، فلم يقل مثلاً: (واطلب بين ذلك سبيلاً)؛ لمُناسبة لفظ (الابتغاء) للسياق، فقد سبق الأمر بالابتغاء «وَأَبْتَعْ» نهياناً مُتضاداً «وَلَا تَجْهَرُ» و«وَلَا تُخَافُتْ» مما يستدعي الاجتهاد في طلب المقصود من الطريق الوسط بين الجهر والمُخافتة، وهذا ما يتميز به لفظ (الابتغاء) عن لفظ (الطلب)؛ إذ إنه يعني بذل غاية الجهد في الطلب⁽¹⁾، وقد جاء على صيغة (افتعال) التي تدل على شدة الطلب والمحاولة والتَّحَرِّي.

التَّحَقُّقُ بِمَنْزِلَةِ
التَّوَسُّطِ بَيْنَ
الجهر والإخفات
يحتاج إلى
مزيد اجتهاد في
الطلب

والمعنى: اطلب بغاية جُهدك طريقاً وسطاً حسب مقتضيات الحال والواقع⁽²⁾؛ ليحصل المقصود من إسماع الناس القرآن وينتفي توهّم قصد التَّطاول عليهم⁽³⁾.

دلالة الأمر في قوله «وَأَبْتَعْ»:

استعمل القرآن فعل الأمر في قوله تعالى: «وَأَبْتَعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا»، وهو أمرٌ حقيقيٌّ، وخطابه إلى النبي ﷺ، ويشمل أمته؛ لأنهم داخلون مع النبي ﷺ فيما خوطب به⁽⁴⁾، ويُفيد هذا الأمر

فضل الاقتصاد
بين الجهر للنكر
والإخفات الذي
لا يظهر

(1) الزَّأغِب، المُفْرَدَات، ص: 136 - 137.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11 / 539.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 238.

(4) الزركشي، البحر المحیط في أصول الفقه: 4 / 257.

استحباب توسُّط رفع الصَّوت في الدُّعاء، وفي قراءة القرآن في الصَّلَاة الجَهْرِيَّة بين المُبَالِغَةِ في رَفْعِ الصَّوتِ والإِسْرَارِ⁽¹⁾، وهذا في الأحوال العامَّة، ولكن إذا كان في رفعه الزَّائد سبباً لإيذاء النَّفس والمُؤْمِنين، أو سبَّ الدِّينِ وسبَّ الله ورسوله، فإنَّه يتوجَّب عليه التَّوسُّط، وتحريمُ مخالفتِه.

فائدة الظَّرْف في قوله ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾:

عبرَ البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿بَيْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، وهو ظَرْفٌ مكانٍ مُتَعَلِّقٌ بالفعل ﴿وَأَبْتَغِ﴾، ولا يكون إلا في شيئين متعَدِّدين بينهما مسافة؛ فأفاد التَّعبيرُ بالبينية وجودَ مسافةٍ بين المُتَقَابِلَيْنِ؛ وهما الجهر والمُخَافَةِ وتوسُّطُها مَنْزِلَةٌ بينهما أمرٌ بها اللهُ سُبْحَانَهُ في دَيْنٍ تميَّزَ بالوسطية في جميع أحكامه. كما أنَّ التَّعبيرَ بالبينية يُفِيدُ التَّشْوِيقَ والاهتمام بما سيأتي؛ لأنَّها ظَرْفٌ مُبْهَمٌ لا يتبيَّن معناه إلا بإضافته إلى اسمين فصاعداً، أو ما يقوم مقامهما، وهو في الآية اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَلِكَ﴾:

عبرَ البيانُ القرآنيُّ باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي يُشَارُ بِهِ إلى البعيد في قوله تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ مع أنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ قَرِيبٌ، فلم يقل: (وابتغ بين هذا سبيلاً)؛ إشارةً إلى بعدهما عن المنهجِ الصَّحِيحِ وهو التَّوسُّطُ والاعتدال، كما أنَّ في التَّعبيرِ به اختصاراً في الكلام، أي لم يقل: (بين هذين الفعلين الجهر والإخفات)، إذ الاختصارُ أبلغُ من التطويل بذكرهما.

نكتة إفراد الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾:

أفردَ البيانُ القرآنيُّ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ مع أنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ أمران، هما: عدمُ الجهر وعدمُ

النَّزْلَةُ بَيْنَ الْجَهْرِ
وَالْإِخْفَاتِ
تَوْسُطُ شَوْقٍ
إِلَيْهِ السَّارِعِ
الْحَكِيمِ وَأَتَّسَمُ
بِهِ الدِّينُ الْقَوِيمِ

فِي الْإِشَارَةِ
إِيمَاءٌ إِلَى
مَنْهَجِ التَّوَسُّطِ
وَالْإِعْتِدَالِ،
وَبَلَاغَةِ اخْتِصَارِ
تَغْنِي عَنْ
التَّطْوِيلِ

(1) السُّبُوطِي، الْإِكْلِيل، ص: 169.

الإشارة إلى
المعنى لا المرئي
المُشاهد تقتضي
الإفراد

المُخافتة المعلومين من فعلي ﴿وَلَا تَجْهَرُ﴾ و﴿وَلَا تَخَافُ﴾؛ مُراعاةً للمعنى، أي أفرد اسم الإشارة؛ لتأويل المشار إليه بالمذكور المتعدد، وذلك لأنَّ الجهر والإخفات في الصَّوت ممَّا لا يُشاهد، فلا يُشار إلى ذاتهما، ولكن يُشار إلى مضمون الكلام، وهو شيء واحد، أيّ مذكور ومقول، ومن هذا قوله تعالى: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: 68).

إيثار لفظ ﴿سَبِيلًا﴾:

أثر البيان القرآني استعمال لفظ ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقل مثلاً: (وابتغ بين ذلك طريقاً)؛ لانتساع دلالة لفظ ﴿سَبِيلًا﴾؛ إذ من معاني السَّبِيل: الطريق الذي فيه سهولة، وطريق الحق، ويُستعمل لكل ما يتوصَّل به إلى المطلوب⁽¹⁾، والسَّبِيل: الطريق وما وُضِعَ مِنْهُ، وسَبِيلُ اللَّهِ عَامٌّ يَقَعُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ سُلِّكَ بِهِ طَرِيقُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ وَأَنْوَاعِ التَّطَوُّعَاتِ⁽²⁾، ويُستعمل في معنى: (المخرج، والهدى، والحُجَّة، والسُّنة والطَّريقة، والطَّاعة والقربة)⁽³⁾.

وكذلك لمناسبة هذه المعاني للسياق؛ إذ إنَّ طَلَبَ قَصْدِ السَّبِيل يكون بفعل الابتغاء ﴿وَابْتَغ﴾ الذي يعني بذل غاية الجهد في طلب الشيء والتَّحرِّي عنه، للوصول إلى المطلوب طاعةً لأمرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقَرُّباً إِلَيْهِ، وذلك بالخروج من بَيْنِ الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاتِ وَصَوْلاً إِلَى طريقٍ وَسَطٍ وَاضِحٍ وَعَلَى هَدًى، وهو أَمْرٌ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْمُتَوَجِّهُونَ، وَيُؤَمُّهُ الْمُقْتَدُونَ، فيوصلهم إلى المطلوب⁽⁴⁾.

بلادة الاستعارة في قوله ﴿وَابْتَغ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾:

في الآية استعارةً تصرّحيةً أصليّة؛ حيث استعار السَّبِيل -

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدَات، ص: 396.

(2) الرُّبَيْدِي، تاج العروس: (سبل).

(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 264، والفريوزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 186.

(4) أبو السُّعُود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 200.

تصوير بدیع
لابتغاء الصوت
الوسط بالطريق
وما وضح منه

الذي معناه الطريق وما وضح منه⁽¹⁾، وهو محل المرور - للصوت الوسط بين الجهر والمخافتة؛ بجامع أن كلا منهما أمر يتوجه إليه المتوجهون، ويؤممه المقتدون فيوصلهم إلى المطلوب، فطوى ذكر المشبه، وصرح بذكر المشبه به؛ ليجيء المعنى في صورة واضحة قريبة من الأذهان⁽²⁾.

❁ الفروق المعجمية:

الدعاء والنداء:

الدعاء أصله هو أن تُميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك⁽³⁾، ومعناه المحوري: جذب الشيء، أو محاولة ضمه إلى حيز أو أمر، كجذب الناس إلى الوليمة والاجتماع، والسوق إلى الأمير أو إلى كل ذي شأن، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص 25].

(الدعاء) لا
يكون إلا مع
الاسم ويكون
برفع الصوت
وخفضه، أما
(النداء) فيكون
مع الاسم
وغيره، ولا يكون
إلا برفع الصوت
صباحاً

ويأتي الدعاء بمعنى التضرع إلى الله ﷻ في طلب أمر، والرغبة إليه فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بالسؤال، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55].

والدعاء: العبادة؛ لأن العبادة تقرب إلى المعبود واعتزاء إليه واستكفاء به، فهي من الجذب والانجذاب، ويأتي بمعنى النداء استلفاً أو استحضاراً أو استنهاضاً.

والدعاء: النداء والتسمية، يُقال: دعوته زيداً ودعوته يزيد إذا سمّيته به⁽⁴⁾.

وأما النداء: فأصله يدل على تجمع، ومنه النّادي، والنّدي:

(1) الرّبيدي، تاج العروس: (سبل).

(2) الهرري، حقائق الرّوح والزّحان: 275 / 16.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

(4) الرّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (دعو).

المجلس يندو القوم حواليه، ومنه دار الندوة بمكة؛ لأنهم كانوا يندون فيها، أي يجتمعون⁽¹⁾، ونادى فلاناً: دعاه وصاح به بأرفع الأصوات. والنداء: رفع الصوت صياحاً.

والنداء: الظهور، ونادى الشيء: رآه وعلمه، وتأتي بمعنى دعاء الشخص ليلتفت أو ليحضر عند المنادي، والتنادي: نداء بعضهم بعضاً⁽²⁾. إذن: تتقارب معاني الدعاء والنداء في المعاجم اللغوية، وقد يستعمل كل منهما موضع الآخر، إلا أن الفرق بينهما هو أن: النداء قد يُقال بـ (يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، وأمّا الدعاء لا يكاد يُقال إلا إذا كان معه الاسم⁽³⁾، وأيضاً: النداء يكون برفع الصوت، في حين الدعاء يكون برفع الصوت وخفضه، يُقال: دعوته من بعيد، ودعوتُ الله بنفسي، ولا يُقال ناديته في نفسي⁽⁴⁾.

الأسماء والصفات:

يمكن بيان الفرق بين الأسماء والصفات من خلال الرجوع إلى الأصل اللغوي وتعريف العلماء لكل منهما من خلال الآتي:

الأسماء: جمع اسم، وأصله (سمو) من علو؛ لأنه تنويه ودلالة على المعنى⁽⁵⁾، وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به، والاسم ما يعرف به ذات الشيء⁽⁶⁾، وقيل: الاسم ما أنبأ عن المسمى⁽⁷⁾، والاسم (مثل جذع وقفل) فكأنه كلمة تعبر عن صفة جسمية لظاهر الشيء أو أعلاه تتخذ علامة له⁽⁸⁾، وقيل الاسم: ما دل على معنى

الاسم يدل على
الذات ومُتضمن
للصفة، والصفة
لازمة للذات

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ندي).

(2) الربيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندي).

(3) الرزغب، المفردات، ص: 315، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 600.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).

(6) الرزغب، المفردات، ص: 428.

(7) الكفوي، الكلّيات، ص: 83.

(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سمو).

في نفسه⁽¹⁾، والاسمُ في أسماء الله هو اللَّفْظُ الدَّالُّ على الذَّاتِ، أو عليها مع صفةٍ من صفاتها، سواء كان مُشْتَقًّا كالرَّحْمَانِ، والرَّحِيمِ، أو مُصَدَّرًا كَالرَّبِّ والسَّلَامِ⁽²⁾، وأسماء الله المُشْتَقَّة كُلُّ منها يدلُّ على ذاتِ الله تعالى، وعلى الصِّفَةِ التي اشْتُقَّتْ منها معًا بالمطابقة، وعلى الذَّاتِ وحدها أو الصِّفَةِ وحدها بالتَّضْمُنِ، ولكلُّ منها لوازم يدلُّ عليها بالالتزام⁽³⁾.

والصِّفَاتُ: جمع صفة من (وصَفَ)، وأصله هو تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ، وَصَفَتْهُ وَصَفًا: نَعَتَهُ بِمَا فِيهِ، وَالصِّفَةُ: الْأَمَارَةُ اللَّازِمَةُ لِلشَّيْءِ⁽⁴⁾، وَالصِّفَةُ: كَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَقِيلَ الصِّفَةُ الْحَالَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّيْءُ مِنْ حِلِّيَّتِهِ وَنَعْتِهِ⁽⁵⁾.

إذن: الْأَسْمَاءُ تَدُلُّ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْقَائِمَةِ بِهِ، فِي حِينَ أَنَّ الصِّفَاتِ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِ النَّعْتِ الْقَائِمِ بِذَاتِهِ سَبْحَانَهُ، أَيِ: الْاسْمُ يَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ (عَلَى الذَّاتِ وَعَلَى الصِّفَةِ)، فِي حِينَ الصِّفَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ.

وبالتَّالِي يُمْكِنُ اشْتِقَاقُ صِفَاتٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَلَا يُمْكِنُ اشْتِقَاقُ أَسْمَاءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ.

الجهر والإعلان:

هناك تقاربٌ دلالي كبير بين لفظي الجهر والعلن، فكلاهما فيه معنى الظُّهور، ولذا يُعَرَّفُ أحدهما بالآخر في اللُّغة، فمعنى جهر: أعلن، ومعنى الإعلان: المُجَاهَرَةُ⁽⁶⁾، ومع هذا التَّقَارُبُ فَقَدْ فَرَّقَ

(1) الجرجاني، التَّعْرِيفَات، ص: 24.

(2) للرَّاعِي، تَفْسِيرُ الرَّاعِي: 116/9، وَالطَّنْطَاوِي، التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ: 441/5.

(3) رَشِيدُ رِضَا، تَفْسِيرُ النَّارِ: 38/1.

(4) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَائِيسُ اللَّغَةِ، وَالْفَيَّومِيُّ، الْمَصْبَاحُ لِلنَّبَرِ: (وَصَفَ).

(5) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (وَصَفَ)، وَالْفَيَّومِيُّ، بَصَائِرُ ذَوِي التَّمْيِيزِ: 223/5.

(6) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، وَالزَّيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ: (جَهَرَ)، (عَلَنَ).

الإعلان ضدُّ
السِّرِّ ولا يقتضي
رفع الصوت،
والجهر ظُهورُ
الشَّيْءِ بِإِفْرَاطٍ

العلماء بينهما، حيث ذَكَرَ العسكري: "أَنَّ الإِعْلَانَ خِلَافُ الْكِتْمَانِ؛ وهو إِظْهَارُ الْمَعْنَى لِلنَّفْسِ وَلَا يَقْتَضِي رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، وَالْجَهْرُ يَقْتَضِي رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: رَجُلٌ جَهِيرٌ وَجَهْورِيٌّ إِذَا كَانَ رَفِيعَ الصَّوْتِ"⁽¹⁾.

وقال الرَّاعِبُ: الْعَلَانِيَةُ: ضِدُّ السِّرِّ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ⁽²⁾، وَأَصْلُ الْجَهْرِ ظُهُورُ الشَّيْءِ بِإِفْرَاطٍ حَاسَّةٍ الْبَصَرِ، كَرَأْيَتِهِ جِهَارًا، أَوْ حَاسَّةِ السَّمْعِ، نَحْوُ: ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ﴾ [طه: 7]⁽³⁾.

الخفوت والخفض والإخفاء:

تتقارب هذه الألفاظ (الخفوت، الخفض، الإخفاء) في دلالاتها اللغوية، ويُستعمل أحدها مكان الآخر، ويُعرَّف أحدها بالآخر، ولكن لكلٍّ من هذه الألفاظ ملامح دلالية تميّزه، وإيضاح ذلك من خلال الآتي:

أولاً: الخفوت: من (خَفَت) أصله هو إِسْرَارٌ وَكِتْمَانٌ، فَالْخَفْتُ: إِسْرَارُ النَّطْقِ⁽⁴⁾، وَالْخَفْتُ: ضِدُّ الْجَهْرِ، وَهُوَ إِخْفَاءُ الصَّوْتِ، وَخَافَتْ بِصَوْتِهِ: خَفَّضَهُ، وَالْخَفُوتُ: ضَعْفُ الصَّوْتِ مِنْ شِدَّةِ الْجَوْعِ، وَالتَّخَافْتُ: تَكَلُّفُ الْخَفُوتِ، وَهُوَ الضَّعْفُ وَالسُّكُونُ وَإِظْهَارُهُ مِنْ غَيْرِ صِحَّةٍ⁽⁵⁾، وَالرَّجُلُ يُخَافِتُ بَقَرَاءَتِهِ: إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ قَرَاءَتَهُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، وَخَفَتِ الصَّوْتُ خَفُوتًا: سَكَنَ⁽⁶⁾.

ثانياً: والخفض: ضِدُّ الرِّفْعِ، وَخَفَضَ صَوْتَهُ: لَانَ وَسَهَلَ، وَالْخَفَضُ: الدَّعَةُ وَالسُّكُونُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ وَالْمَطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، وَخَفَضَ الصَّوْتُ: غَضَّه⁽⁷⁾.

الخفوت خاص
بالصوت وهو
ضد الجهر،
والخفض ضد
الرفع، والإخفاء
ضد العلن

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

(2) الرّاعب، المفردات، ص: 582.

(3) الرّاعب، المفردات، ص: 208.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفت).

(5) الرّبيدي، تاج العروس: (خفت).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجهري، الصحاح: (خفت).

(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط: (خفض).

ثالثًا: والإخفاء: السُّتْرُ والتَّغْطِيَةُ، والخَفَاءُ: ما يُسْتَرُّ به كالغطاء⁽¹⁾، وأَخْفَيْتُ الشَّيْءَ: سَتَرْتُهُ وَكَتَمْتُهُ، وَخَفَيْتُهُ: أَظْهَرْتُهُ، فهو مِنَ الْأَضْدَادِ، وَأَخْفَى الصَّوْتُ: كَتَمَهُ، وَيَقُولُونَ: بَرِحَ الْخَفَاءُ، أَيَّ وَضَحَ السِّرُّ وَبَدَأَ⁽²⁾، وَنَقِضُ الْإِخْفَاءِ الْعَلَانِيَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]⁽³⁾.

إذن: تفتقرُ هذه الألفاظُ (الخفوت، الخفض، الإخفاء) في أمور:
رابعًا: الخفوتُ خاصٌّ بالصَّوْتِ، فهو إِسْرَارُ النُّطْقِ، في حين أنَّ الخفضُ والإخفاء لا يختصَّان بالصَّوْتِ فقط، بل يُطْلَقَانِ عَلَى الصَّوْتِ وَعَلَى غَيْرِهِ.
خامسًا: الخفوتُ ضِدُّ الْجَهْرِ، والخفضُ ضِدُّ الرَّفْعِ، والإخفاءُ ضِدُّ الْعَلَنِ.

سادسًا: يَتمَيِّزُ لَفْظُ الْخَفُوتِ بِأَنَّهُ فِيهِ مَعْنَى الضَّعْفِ، وَيُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ التَّبَيِّنِ.
سابعًا: وَيَتمَيِّزُ لَفْظُ الْخَفُوضِ بِمَعْنَى الدَّعَةِ وَاللُّيُونَةِ وَالسُّهُولَةِ، فِي حِينَ يَتمَيِّزُ الْإِخْفَاءُ بِمَعْنَى السُّتْرِ وَالتَّغْطِيَةِ.

الابتغاء والطلب:

يَتَقَارَبُ لَفْظَا (الابتغاء والطلب)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَصْلَ (طلب) فِي اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءِ الشَّيْءِ، وَأَحَدُ مَعَانِي أَصْلِ ابْتِغَاءِ هُوَ الطَّلَبُ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا التَّقَارُبِ الْكَبِيرِ يَوْجَدُ مَا يَتمَيِّزُ بِهِ كُلُّ مَنَّهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ:

أَصْلَ (الابتغاء) يَدُلُّ عَلَى الطَّلَبِ، وَبَعِيَّتُ الشَّيْءِ وَابْتِغِيَّتُهُ: طَلَبَتُهُ⁽⁴⁾، وَالِابْتِغَاءُ جَاءَ عَلَى صِيغَةِ الْافْتِعَالِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الطَّلَبِ وَالْمُحَاوَلَةِ وَالتَّحَرِّيِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الطَّلَبِ.

(1) الرَّأْغِبُ، الْفُرْدَات، ص: 290، وَالسَّيْمَنِ الْحَلَبِيِّ، عُمْدَةُ الْحَفَاط: 1/ 518.

(2) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَائِيسُ اللُّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (خَفِيَ).

(3) ابْنُ عَبَّادٍ، الْمُحِيطُ فِي اللُّغَةِ، وَجِبِل، الْعَجْمُ الْاِشْتِقَاقِيُّ لِلْمُؤَصَّلِ: (خَفِيَ).

(4) الرَّأْغِبُ، الْفُرْدَات، ص: 136 - 137.

الابتغاء مُجَاوِزَةٌ
 وَاجْتِهَادٌ فِي
 الطَّلَبِ، وَالطَّلَبُ
 مُحَاوَلَةٌ وَفَحْصٌ
 عَنْ وَجُودِ
 الشَّيْءِ وَأَخْذِهِ

وأصل (طلب) يدُلُّ على ابتغاء الشيء⁽¹⁾، والطلبُ: محاولةٌ وجدانُ الشيء وأخذه⁽²⁾، والطلبُ: الفحص عن وجود الشيء عيناً كان أو معنى⁽³⁾.
 إذن: يتميَّز الابتغاءُ بمعنى المجاوزة والاجتهاد في الطلب، ويكون محموداً ومذموماً، ويتميَّز الطلبُ بالمحاولة، والفحص عن وجود الشيء وأخذه.
 كما أنَّ الفعل من الابتغاء يكون من أفعال المطاوعة، تقول: بَغَيْتُهُ فأنْبَغَى⁽⁴⁾، في حين أنَّ الفعل من الطلب لا يكون من أفعال المطاوعة، والفعل الذي له مُطَاوَعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الذي لا مُطَاوَعَ له.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلب).

(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (طلب).

(3) الرَّاغِب، المفردات، ص: 523.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغى).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-26-5

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»